# تقـــــديم

« ان من يشتهى ( أو يقول ) دون »
« ( أو قبـــل ) أن يفعـــل شـــيئا »
« انما ينتج الطاعون »
ـ وليم بليك ـ

**« حديثنا عن الشيء قبل وقوعه ، يفقدنا الحماس له »  ـ نزار قباني ـ**

رايت أن قضية « الفعل » تستهدفها . وتثيرها . . هذه المقالات جميعا . . فجمعتها بين يدى القارىء « المثقف » . . وهى لا تدعى: معالجة « القضـــية » من مختلف جوانبها ! ولا تيسر لهـــا العمق المطلوب . . ! بقدر ما هى مخلصة فى اثارتها : متروكا للمختصين بحثهابحثا أكاديميا مثمرا . . لاسيماومجتمعنا العربى ـ على مستوى الفرد والجماعة ـ ما زال متخما « قولا » وتجريدا . . وادعاء . . وعجزا عن شجاعة « الفعل » . . وهروبا من الواقع الى الوان من التبرير او التأويل ، والتهويل او التقليل ـ الامر الذى يفقدنا الدقة والنظام وتحديد الهدف ـ فنسكن أو نطمئن الى من يحاول مغالطتنا او مجاملتنا ـ ملاحظا تعظيمنا وتمجيدنا ـ ونفر منه او نكيل له الشتائم . ! وقد اتخذنا منه موقفا معاديا ، اذا كان صريحا معنا ، مخلصا نزيها . . مستهدفا دفعنا الى مباشرة « الفعل » .

قد يعلل هذا السلوك بأن أطوار أو حلقات النضج والوعى بمتطلبات الذات مرتبطة ومتعاونة مع الآخرين ، لم تكتمل فى عالمنا، متأخرة لذلك مرحلة طلب الحماية أو الخوف من مغادرة «الذات»ـ لتكون المسؤولية المباشرة عن آثار « الفعل » «والقول » ـ وتستمر « التبعية » لانها من مستلزمات حضارة « القول » لدينا ..

بالرغم من أن لغتنا « العربية » تستوجب الاولوية ـ فى الجملةـ للفعل : « الحدث » نطقا وكتابة على بقية الاصطلاحات الاخرى .. لكن ينبغى أن لا نغفل ـ هنا ـ على أن « البيئة » العربية قديما هيأت ليكون « القرآن » ـ قولا ـ معجزة منذ أربعة عشر قرنا .

**علوان**
القاهرة ـ الزمالك ١٩٧٦

## الكلمة .. البدء والمبـدأ ■

## أو

## دعوة الى « الفعل » ..

« تشير الاصبع الى القمر ، فلا
ينظر الاحمق الا الى الاصبع »
ـ مثل هندى ـ

اذا كانت خديعة « التناقض » أو معضلة « الازدواج » .. قد أرهقت الانسان عصورا متتالية ، بداية من أيام ضعفه وبدائيته ، فاضطر باحثا عن قـوى عديدة مختلفة ـ حسب امكانياته المدركة وبيئته ـ طالبـا الحماية أو القوة بها ... فاستعبده بعضها وفرقه، بعد ان رآه بعين وهمه أو خياله أو ضعفه .

ونهاية الى أيام قوته الذاتية ، العلمانية .. الحضارية ..

فان هذه الخلفية أو تركة التناقض والازدواج بين « الفعـل والقول » ما زالت أداة تدمير وعائقا دون بناء الحياة الانسانية التى يريدها ـ حسب مقاييس العصر وحضارته ـ لا سيما فى « المجتمع العربى » الذى ما زالت تغرقه الشعارات ، واللافتات والخطب الرنانة ... وتضعفه الاقليميات الضيقة ... وسـيطرة النزعة

---

■ كتب ونشر المقال فى العـدد الخاص بمناسـبة مرور سنة على تأسيس « الشعب الثقافى » بالجزائر
وقد اتحد هذا التاريخ بالشروع فى تطبيق الثورة الزراعية بالجزائر ١٧ جوان ـ يولية ١٩٧٢ .
وكما قال ملاحظ غربى : « ان الجزائر أصبحت المصدر الايديولوجى للعالم الثالث ، لان أيا من دولة لا تملك هذا المزيج العجيب من الفكر والفعل » .

الفردية ، والخرافات والاولياء الصالحين .. وشتى أنواع الوهم والدجل دون شجاعة .. الفعل من اجل التغيير .. !!

وقد ساعد هذا الوضع على تضخم الاضعف عموما لفائدة الاقوى عموما فغدا هذا الاخير يحرص على امتيازاته ويحمى تفوقه وتطلعاته ـ التى يزداد جوعا لها طبيعيا ـ بكل ما امكنه من حيل ومن وسائل .. اتباعا لقاعدة : « تنازع البقاء » لا التعاون على البقاء ... وهو أيضا الذى يضع القوالب . وما على الاضعف الا ان يدخلها صامتا ... دون سؤال أو حوار ، لانه بذلك يعرض حياته للخطر ـ عفوا ـ ينهى موته البطىء بموت فورى ... !!

ولهذا وجد الجيل المعاصر الحلقة مفقودة بينه وبين اغلب « السلفيات » فأراد أن يكون تعامله معها بحرية وبموضوعية .. حذرا من المزالق والمهاوى والمتاهات وأرضيات القش والرمال ... رفضا للانفصال الذى يمنعه من التفاعل مع مضامين العصر وايديولوجياته المتحررة .. ومستغربا قوالب الحديد الجاهزة التى ساهمت فى خلقها اعتبارات اعتباطية اقطاعية .. ارهاقية .. فوقية باستمرار، فهى شبيهة بسرير ذلك الطاغية قاطع الطريق «بروكست» فى الميثيولوجيا اليونانية ، الذى كان يسلب المسافرين ويعريهم ، ثم يمدهم على سرير من حديد فيقطع أرجلهم اذا كانوا اطول منه ، ويشدهم عليه اذا كانوا أقصر ...

يريد الآخرون ـ ظلما وعدوانا وانغلاقا ـ أن يجدوا كل شىء فى الماضى !!! وكأنهم ينفون عن الانسان ، التطور الخلاق ، عبر العصور المتلاحقة ارتباطا بظروفه وبحاجياته المتجددة .. فيريدون له « الدائرة المغلقة » أو العجز عن الفعل والخلق ... قربانا لواقع لم ينجزه ولا عانى ظروفه الاجتماعية الحضارية وملابساته..ولهذا سوف لن يعثر فيه : لا على ، ولا بحلول لمشكلاته ، لان الواقع ـ

كما يقول « غارودى » ـ : ... ليس معطى جاهزا ، بل مهمة تنجز ، وفى هذا تذكير بأن الانسان خالق ومبدع ... » .

اذن الانسان يصنع واقعه ويكيفه متفاعلا مع البيئة والظروف حسب حاجياته وامكانياته ونداءات العصر ، مرتبطا بالآخرين : « منتميا » ... حتى لا يقع له ما لحق بحيوان الديناصور أو بأهل الكهف فى العصور السحيقة ...

فالفعل ـ اذن ـ او الحركة عنصر أصيل فى انسانيته .. وليس غير الفعل مبررا لوجوده .

واذا اتفقنا على أن هذا « الانفلاق الفكرى » أحد العيوب أو « الافيونات » التى تطلقها « الرجعية » كلابا مسعورة للاحقة « الوعى المعاصر » ورميه بشتى التهم والاباطيل ـ لانه ينطلق من الفعل والواقع والوضوح ـ لتبقى محافظة على أساليب الادعاء والفوقية ..

فسوف نتفق ايضا على ان لازمة التناقض بين الفعل والقول ، أو السلوك والفكر او ما فى النفس وما فى الواقع ... لا يقل عن الاول عارا فى تمهيد الطريق « للهزيمة » وفى شتى ضروب الذل والتأخر والمرض والجهل والانشقاق ...

وقد يحق للبعض أن يستنتج : فقدان ثقة الاصدقاء بنا ، واطمئنان الاعداء لعارنا ... اما الآخرون فأمرنا لم يعد يثيرانتباههم: لا علينا ولا لنا !

ولعله أسلم لنا أن لا نخاف هذا المنطق ـ لانه نقد : وهو فتح اكثر واعمق للبصر والبصيرة ـ لان مجتمعا يخاف النقد ، ولا يفهمه فهما سليما ، متبعا بديل ذلك الميل الى المجاملة والاطراء والتجاوز ، والاعتياد على الاخذ بالخاطر .. يؤخر تطوره ، وظروف استقراره الصحيح .

اذن فلنشرع فى تغيير ما بأنفسنا من اجـــل الانسان العربى المعاصر ، لان الواقع المعاش يحملنا مسئولية ذلك ... فنترك لهذا الانسان حرية بناء الذات متفاعلا مع الواقع ، واذا جاز لنا ان نختار ، فليس امامنا الا التزام الفعل منهج فى الحيـــاة واضح انسانى ، تحررى ، واع .. يعمق صلاتنا بالآخرين ...

لقد استفادت الحضارة العربية قديما مما جاورها واتصل بها واستولت عليه ، ولولاه لمـا كان لها ذلك العطاء العظيم « لاوروبا » فى عصورها المظلمة .. !

ولكن صلتها بالفعل وبالانســان المناضل ضعف ، وباتت فى الغالب ثقافة محنطة حيث انقطعت عنها عملية امـداد الانسان بالتفاعل مع الحياة وتطوراتها ... مما جعل هذا الانسان ــ أيضا ــ يصاب بالوهن ، ويعجز عن جميع انواع العطاء تقريبا ...

وراح يدور فى دوائر مغلقة حول ذاته وحول الاشباح .. فامتلأ بؤسا ! اذ وجد بين يديه « أقفالا » بدون مفاتيح ، « ركاما » من القول ــ غالبا ــ لم يساعد على الاتصال بالواقع ولا انطلق من الفعل بقدر ما كان هروبا منهما معا ... وامتدت زمنيا المعضلة الانفصالية : بين القول والفعل ..

واذا كنا سنجد عمر العصور : هناك صراع بين الماضى والحاضر ناشىء عن التناقض بينهما والتخالف لان عمليات التطور لا تتوقف بالنسبة لشتى ضروب الحياة ، وان السابق ــ غالبا ــ يأبى التسليم للاحق . لكن هذا الاخير يتشبث بحقوقه مستندا الى تجربته الخاصة وخبرته : إرادة فى التغيير وهو شكل من اشكال التعبير عن الذات والواقع ... واتصال بهما ، واميل الى اختيار هذا المثال وهو :

ان الابن « ابراهيم » ثار على ابيه رافضا بيع « الالهة » الحجرية بعد أن اكتشف زيف ما قيل له تجاه الفعل والواقع .. والحقيقة..

ان هذه الاصنام التى ستبيعها والتى نعبدها ، تضر وتنفع . !

وانقضت مدة وابراهيم يبيع هذه الاصنام ، منتظرا علامات ضرها او نفعها ! وذات يوم وقع منها صنم على الارض فانكسر !!!

عندئذ تيقن ابراهيم وثبت لديه زيف الادعاء متسائلا لماذا لم ينفع هذا الصنم نفسه ! لماذا لم يمنع هذا الاله الكسر عن ذاته ؟ !

ووقع لابراهيم ، ماوقع .. لا يهمنا البحث فيه الآن ! ولا يهمنا الحديث عن الطريق الذى سلكه بعد ذلك ـ كما تروى القصة ـ فهو مرتبط بعصره وبأوضاعه الاجتماعية والحضارية آنذاك ...

وانما الذى نريد أن ننتهى اليه : الكلمة .. البدء والمبدأ وهى ليست غير « الفعل » أو « الخلق » كما وردت فى « سفر التكوين » بالتوراة (١) .

وكما اهتمت اللغة العربية فأعطت الاولوية للفعل فى الجملة .

وكما تتجه « الكلمة » فى اللغة الصينيةنحو التعبير عن الفعل المباشر بالدرجة الاولى وتضع التفكير المجرد فى الدرجة الثانية ... فهى ليست مجرد دلالة تشير الى مفهوم مجرد نتيجة للتجريد

---

(١) انظر سفر « التكوين » الاصحاح الاول : « فى البدء خلق الله السموات والارض .. » .

وللتعميم المنطقيين ، بل ان الكلمة هى احياء لمجموعة غير محـددة من الصور الفاعلة .. فان الطابع الذى تغلب عليه صفة التجسـيم العملى ، هو الغالب على لغة التخاطب والكتابة الصينية (١) » .

ـ الجزائر ١٩٧٣

(١) كتاب : أيديولوجيات اليسار الجديد ص ١٦ ، الدكتور الياس فرح ـ بيروت .